"بحثاً عن الضاحية"

فتاة تنبش في ذاكرة العائلة

هنادي الديري

أرادت أن تكتشف "حارة حريك"، فكان الفيلم الروائي القصير، وبعده الوثائقي، فرصتها لتكتشف "الحارة" التي كثرت الحكايات التي روتها عائلتها عنها عبر السنين. أرادت أن تتعمّق في المكان الذي اختنقت من حضوره المتكرر في حياة أفراد عائلتها بعدما أجبرتهم الحرب على هجره، فإذا بالذاكرة "تفيض" من كثرة الصور التي احتفظت بها.

"أنّو ما في شي حلو الا حارة حريك؟ ما هلّق عايشين ومبسوطين كمان". تقول لي الشابة باميلا غنيمة عبر الهاتف بعد عرض فيلمها الروائي القصير: "مسافة الطريق"، وبعده الوثائقي الذي تناول قصة عائلتها مع الحارة: "زهر الليمون"، في "المنفار- أمم" في حارة حريك، ضمن مشروع "بحثاً عن الضاحية" الذي يتضمن معرضاً للصور وليال سينمائية. "مسافة الطريق" كان الفيلم الذي أنجزته عام 2003 أثر تخرجها من معهد الدراسات السمعية والبصرية والمسرحية لجامعة القديس يوسف (IESAV). تتحدث القصة عن عائلة "مش شيعية" وفق الشاب الذي قدم أمسية عن الموضوع الاسبوع الماضي، "تركت الضاحية وجرّبت ترجع". على مدى 26 دقيقة سنتعرّف الى ولد صغير ووالدته، كيف يمضيان أيامهما الأخيرة في حارة حريك بعدما قررت الوالدة أن تغادر المكان. يكتشف الصغير عمر دراجة قديمة متروكة عند حافة طريق قديمة، فإذا به يعمل جاهداً ليصلحها. وبعدما يمضي ساعات في العمل عليها يقدمها الى صديقه، قبل أن يغادر المكان مع والدته. تقول باميلا انها صوّرت هذه القصة "بمكان بيعنيلي: كان أول اكتشاف لحارة حريك". راقتها البراءة في هذه القصة "اللي كان ممكن تتصور في اي مكان"، فضلاً عن الحب الذي يقدمه عمر الى صديقه من غير شرط. عندما كانت تصوّر فيلمها القصير في الحارة اكتشفت انها "ما بتشبه أبداً حارة حريك اللي أهلي بيحكوني عنها"، ولهذا السبب شرعت تبحث عن أماكن قديمة ترمز بطريقة أو بأخرى إلى هذه الحارة التي كانت في أيام خلت، قرية يتعامل فيها السكان وكأنهم أفراد عائلة واحدة. "ما صوّرت فيها كأنها ضاحية ولكن كأنها ضيعة. ضيعتي ما عادت موجودة. بعض الأماكن خلوني إرجع اتخايل كيف كانت".

باميلا غنيمة تتحدث بسرعة، تروي الكثير من الطرائف عن العملين اللذين أخذاها الى الضاحية. في "زهر الليمون" ننتقل الى عائلتها، وتحديداً الى البيت القديم الذي سكنته جدتها قبل وفاتها. في هذا المنزل تجتمع والدتها وخالاتها لاسترجاع الماضي الذي تعاملن معه وكأنه الحاضر الدائم. يشاهدن أحد أفلام فريد الأطرش القديمة ويتحدثن وكأن الكاميرا ليست موجودة: "كانوا متأثرين وخيفانين وبعدين حسّوا الإطار طبيعي ودغري فاتوا بالجو وتأقلموا وما خلّيتن يمثلوا ولكن عم يتسايروا".

ونزور أيضاً والدها الذي بنى حديقة في جونية تذكره بالحارة. "جاب تراب من الحارة تيصير للمكان معنى أكتر. وجاب من هونيك كمان عواميد كهرباء مصنوعة من خشب ليسيّج الحديقة. هول قصص اكتشفتن وما كان يخبرنا هني. وهيدا أثّر فيني". أما والدتها وخالاتها فصورتهن في بيت والدتهن الذي انتقلت اليه بعد مغادرتها الحارة. وفي حين تعذبت جدتها كثيراً لهجرها "ضيعتها"، بيد أنها تأقلمت في حياتها الجديدة وحوّلت المبنى الذي عاشت فيه المكان الذي يجتمع فيه الجيران حول الحب والانسجام. إذ كانت تدعو الجميع الى "فنجان قهوة"، و"بيتها يضلّ مفتوح"، كما "خلّت الجيران يحبوا فريد الأطرش. والدي بيشبه ستي أم أمّي. وجسّد كمان متلها حب الحياة من خلال الحديقة. وكمان التفاؤل والقوة. لو ستّي عايشة كانت حتحكي بطريقة مهضومة عن الحارة. كان عندها كاريزما. أمي بتقلّي انو الكل كانوا بحارة حريك فاتحين بيتهن والكل يجوا عند بعض". أما "زهر الليمون"، فعبّر بشكل أساسي عن ذكريات العائلة على اعتبار ان حارة حريك كانت مليئة بأشجار الليمون وكانت تعبق برائحتها الزكية. "إمي وخالاتي بكيوا وقت اللي شافوا الوثائقي. ووالدي اعتبرها مغامرة ومش هيّن يسترجع كل شي. واعتبرها أحلى هدية ممكن أعطي ياها من هلق لكل حياتو".